صور من حياة أبي العلاء بين يدي ذكراه الألفية

أبو العلاء المصلوب !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

[يطالع قارئ ديوان « اللزوميات » لأبي العلاء صوراً شتى من حياة هذا الرجل ، حتى ليختلط على القارئ المتعجل تمييز تلك الشخصية بميزات وسمات تلازمها ولا تفارقها

غير أن حركة صور تلك الحياة في ذهني تكاد تستقر على مقطع واحد من مقاطع نظري إليه ، وهو مقطع صورة لرجل مصلوب !]

كأنما الأقدار قد أطالت صلبه ليترجم عن معاني الألم والتشاؤم والسأم والشك والتبرم ، وانتقاد شريعة الاجتماع ، والانتقاض على شريعة الحياة نفسها . وكأنه كان رسول هذه المعاني في الأدب العربي ، جاء لينذر الناس بنذر من عالم الفناء والتعطيل والظلام والآلام . فهو في آفاق هذا العالم رائد خبير ، قطع حياته كلها يجوس بعينيه المطموستين في أمواجه القاسرة لم يبزغ عليه فجر نور يزوده بصور باسمة للحياة يتذكرها ويلهو بذكراها في رحلته القاسية الطويلة ، إذ حرمته الأقدار بعض أسباب السلوى والنسيان والتلهي ، وضاعف هو حرمان نفسه ، إذ رفض بقية ما سلبته الحياة . فكتب على نفسه بيده أسباب نقمته الموصولة ، وقد أعانه على إدمان آلامه ذاكرة واعية ، وحافظة مصورة ، وخيال خلاق مثال ، بلغ من قدرته أنه كان يرى في كل لفظ من محصول اللغة التي كان فيها إماماً قالباً لمعنى من معانيه ، ونواة لفكرة من أفكاره ، لا يلبث أن يدور حولها دورة يخرج منها معنى يُضَمُّ إلى أسرة المعاني العلائية المعروفة

وقد نجح في أداء رسالته ، فقبس « أقباساً » داجية من عالم التعطيل والظلام ونقلها إلى عالم الحياة والحركة والافتتان والاستسلام ، وأتى من وديانه بصور وتهاويل وأشباح تطالع قارئ ديوانه « اللزوميات » فيقبل عليها في ارتياع ووجل وشوق غامض كما يقبل على عالم الضوء بمرائيه وأشباحه البيضاء الآنسة المأنوسة ! فيبصر ذلك الجانب الآخر من حياة قانونها المزاوجةُ بين المسرات والآلام ، وينبه السكارى باللذة إلى ما هنالك من السكر بالألم :

وأوقدتِ لي نار الظلام ! فلم أجد
سَناكِ بطرْفي بل سِناكِ في ضِبْني

وقد أوثقته الأيام على صليبه في محبسه ، وسمّرت جوارحه بمسامير العجز ، وحررت فكره ولسانه وبيانه . والبيان قوة خطرة في مثل هذه الحال ، تخلق ما ليس موجوداً ، وتبالغ في الموجود حتى تخرجه إلى الإحالة ، وتخدع صاحبها قبل غيره ، وتضخم تهاويل الحرمان والعجز ، حتى تصير كابوساً يأخذ بالأنفاس ...

ومن عجيب أمر الحياة مع المعري أن أطالت عمره مصلوباً وحيداً إلا من صحبة نفسه التي لقي منها البرح البارح ، ولقيت من فكره الحيران العذاب المضاعف

وقارئ « اللزوميات » يخيل إليه أنه أمام آهات موصولة من ذلك « الفكر » المصلوب الذي أكلت من رأسه وتخطفته طيور الشك والألم والحيرة وإرهاف الحس وعدم الصبر على الفتنة بالناس ، وعلى السير معهم على سطح الوجود بدون تعمق وطلب لما لا ينبغي أن يطلب . وكأن ذلك القارئ أمام مريض مزمن يتقلب على فراش شائك . ولم تكن حالات التسليم والهدوء والرجوع إلى معاني سطح الحياة تعتري المعري إلا كما تهدأ الحمى عن مريض برهة مخطوفة ، ثم لا تلبث أن تعود في إلحاح ولجاج وإنهاك

وقد قلت في مقال سابق : إن السُّكر بالألم سكر خطر ، أشدّ خطورة من السكر باللذة ؛ لأن في الثاني إقبالاً على الحياة واعترافاً بها ، وحب تذوق لفرصتها العابرة ، وخواطر مسرّة ورضاً عنها وعن أفانين الإبداع فيها . أما السكر بالألم فيحمل على هذيان فيه رفضٌ للحياة جملةً ، وتعطيل لحركتها في النفس ، وخواطرُ سخط على صانعها ، وانتقاد لنظمه فيها ، وانتقاض وثورة وإباق وفرار وحقد دفين وغيظ مُعلَن وفُضول وتدخل من كائن صغير ضئيل في السياسة العليا للحياة

سكارى اللذة قد يسخرون بشريعة الاجتماع ويحطمونها من فرط وُفُور القوة وَتَوَفز الحس والشعور بما فيها من متاع

عبقرى تستجيب له نفوسهم ، ولا يقفون فى استجابتهم له عند الحدود التى دلت تجارب الأحياء الذين كان لهم مثل هذه الاستجابة النهمة على أنها حدود يلزم الوقوف عندها واحتجاز النفس دونها إبقاء على تلك الاستجابة ذاتها ، وإدامة لتجددها وطلباً للمزيد منها . ومن السهل رجوع سكارى اللذة إلى أحضان شريعة الاجتماع باستخدام منطق التجارب فى إقناعهم . فكل عيبهم أنهم أطفال جياع شرهون امتدت طفولتهم فاستمروا على حب الحلوى والزينة والمتاع بهما فى إسراف ، وسخطوا على « صمامات » الأمان و « فرامل » النجاة التى تتمثل فى شريعة الاجتماع التى لا يدركون فيها مصالحهم الذاتية قبل مصالح غيرهم

أما سكارى الألم فيحملهم هذيانهم على تحطيم « شريعة الحياة » ذاتها ، ولا يعترفون بها ، ويقفون من صانعها وجهاً لوجه وقفة الند للند ثائرين صاخبين ساخطين !

* * *

والآن لننتقل بخيالنا لننظر ذلك الشيخ الأعمى المسمَّر على صليبه يحملق فى وجه الظلام السرمدى بعينيه المطموستين ، وأمام شفتيه كأس من الحنظل يرشف منها رشفات ، ويئن من توقد جمرات الإحساس بالحياة . فينشد معلناً معانى نفسة ويطرحها قضية جريئة ثائرة ...

فكونُك فى هـذه الحياة مصيبةٌ

أرى جُرَع الحياة أمَرَّ شىء ... فشاهِد صِدْق ذلك إذ تُقاء

شربت قهوة همٍّ كأسها خَلَدى

وفى الفارق ممـــا أطلعتْ زَبَدُ

أرى جزء شهدٍ بين أجزاء علقم

أ كلتُها جمرةٌ حرارتُهـا ... صدت أخا الحرص عن تنعمها

أف لها ! جُلُّ ما يفيد بهـا ... من فاز فيهـا الطعامُ والباه

من لى بترك الطعام أجمعَ

إن الأكل ساق الورى إلى الغبن

إلى الأنين استراح خِدنُ ضَنًى

كما استـراح السقاةُ بالرجـز

ثم تذهب خواطره إلى نوع من ثورة العاجزين الذين يملكون الأفكار الثائرة ولا يملكون الأعمال المحررة التى تحررهم من إسار الحياة المنيف الكريه فينشد :

هذه الحبالة قد ضمت جماعتنا ... فهل بنوصُ فتى منها وينفلت

خلصينى من ضنك ما أنا فيه ... واطرحينى لمنكر ونكيرِ

إلام أجر قيود الحيـــاة ... ولا بد من فك هذا الإسار

آه لضعفى ! كيف لى هابطاً ... فى الواد أو مرتقياً فى العقاب

وما فتئت وأيامى تجدد لى ... حتى مللت ولم يظهر بهـا ملل

ربٌّ متى أرحل عن هذه الدنيا ... فقد أطلت فيهـــا المقامْ

وقد تحمله سكرته على حالة يكون فيها مستغرق الفكر فى ذهول الحالم

فيـــالك من يقظةٍ ... كأنى بهــــا حالم

والمرء فى حال التيقظ هاجع ... يرنو إلى الدنيا بمقلة حالم

وقد تحمله يقظته المرهفة على حالة يكاد فيها يعد أنفاسه سأماً وحساسية ببطء مرور الزمن كبطء مرور مبهور الأنفاس أو مرور نمال صِغار على كثيب من رمال .

وأنفقت بالأيام عمرى مجزءا ... بها اليوم ثم الشهر يتبعه الشهر

يسيراً يسيراً مثل ما أخذ المدَى

على النــاس ماشٍ فى جوانحه بُهرُ

كذرٍّ علا ظهر الكثيب فلم يزل

به السـير حتى صار من خلفه الظهر

وهو شديد الشعور بجزيئات الزمن يتلقاها برهة برهة وتشد عليه سلاسلها ، وهو واقف فى إسارها جامد لا يتحرك

بتُّ أسـيراً فى يَدَىْ برهة ... تسير بى وقتىَ إذ لا أسـير

وهو يرصد دورات حياته المحدودة المكرورة فلا يجد فيها مذاقاً جديداً للحياة :

أقضّى الدهر من فطر وصوم ... وآخذُ بُلغةً يوماً بيــــوم

أعيش بإفطار وصوم ويقظة ... ونوم فلا صوماً حمدت ولا فطرا

تداولنى صبح ومُمسى وحِندسٌ ... ومر على اليومُ والغد والأمس

غدا رمضانى ليس عنى بمنقض ... وكل زمانى ليلتى آخر الشهر

وهى حالة يبلغ من إلحاحها على صاحبها أنه يتعجل دورة الفلك ويتطلع إلى الغد قبل مرور اليوم :

أصبحت فى يومى أسائل عن غدى

متخبراً عن حاله مُتندِّسا